

سورة فاطر — سورة الملائكة

هى مكية نزلت بعد سورة الفرقان وآيها خمس وأربعون .
ومناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقها هلاك المشركين وإنزالهم منازل العذاب —
لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : « قَطُّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي
أَجْنِحَةٍ مِّثْنِي وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (١) .

شرح المفردات

فاطر الشيء : أوجده على غير مثال سابق ، رسلا : أى وسائط بينه وبين أنبيائه
يبلغون عنه رسالاته ، مثنى وثلاث ورباع : أى اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة .

الإيضاح

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) أى له سبحانه الشكر فقد أبدع خلق
السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق وأحكم تديرهما على أتم نظام ،
كما قيل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جاعل الملائكة
وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغون إليهم رسالاته — ذوى أجنحة إما اثنين اثنين، وإما
ثلاثة ثلاثة ، وإما أربعة أربعة .

والأجنحة فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وكثرتها تومئ إلى السرعة ، وهى فى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة على السرعة فى تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالات ربه إلى أنبيائه .

وفى هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقوامهم عند الله تعالى على حسب استعدادهم الروحى . وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود « أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته له ستائة جناح » وفى هذا رمز إلى قوة استعداده الروحى وقربه من الملأ الأعلى وسرعة تنفيذه ما يؤمر به .

(يزيد فى الخلق ما يشاء) أى يزيد فى خلق الأجنحة ما يشاء، كما يزيد فى أرجل الحيوان ما يشاء حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحياناً ، وهكذا يزيد فى تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية كما قيل .

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمرنا

(إن الله على كل شىء قدير) فيزيد كل ما هو أهل للزيادة وما هو مستعد لها، حسية كانت أو معنوية ، فلا يمتنع عليه فعل شىء أراد، لما له من القدرة والسلطان على كل شىء .

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)

شرح المفردات

يفتح : يعطى ، ورحمة : أى نعمة حسية كانت أو معنوية كرزق وصحة وأمن وعلم وحكمة ، إلى نحو ذلك مما لا يحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة - أيد ذلك بما يشاهده كل أحد في نفسه من الضيق حيناً والسعة حيناً آخر ، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد ، وجلب النعمة لو أراد .

الإيضاح

مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه ، فما يعطى من خير فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه ، وأى خير يمسه فلا يبسطه ولا يفتح له فأنح ، لأن الأمور كلها بيده ، ومنه البذل والعطاء ، والمنع والإمساك .

وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التي منها الفتح والإمساك ، وهو الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

وفى الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم والتوجه إليه فى قضاء حاجهم والتوكل عليه فى جميع مآربهم ، والإعراض عما سواه من جميع خلقه .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِيدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ » .

روى أحمد عن المغيرة بن شعبه أنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجِذِّ منك الجِذُّ » .

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : سمع الله لمن حمده ، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شىء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد ،

أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال : أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتهن فما أبالي ما أصبح عليه وأمسى : (١) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا يسك لها وما يسك فلا مرسل له من بعده . (٢) وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله . (٣) سيجعل الله بعد عسر يسرا . (٤) وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) .

شرح المفردات

أنى تؤفكون : أى من أين تصرفون عن توحيد الخالق مع الاعتراف بأنه وحده هو الرازق ، وتشركون المنحوت : بمن له الملكوت .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد فى نفسه - أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر عليها .

الإيضاح

أبىها الناس راعوا نعم الله واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها ، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة فهو الذى بيده أرزاقكم وأقواتكم ، فإلى أى وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ، ووضح السبيل .

وإخلاصة — احفظوا نعم الله وأدوا حقها ولا تشركوا به سواء من الأصنام والأوثان ، بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا
إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأصل الأول وهو التوحيد — ثنى بذكر الأصل الثانى وهو الرسالة وسلى رسوله عن تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل فقد كذب كثير منهم قبله ، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم ؛ ثم ذكر الأصل الثالث وهو البعث والنشور مع بيان أنه حق لا شك فيه ، وأنه لا ينبغي أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان فإنه عدو لبنى آدم ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التى توصلهم إلى عذاب النار وبئس القرار .

الإيضاح

(وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) أى وإن استمر قومك على تكذيبك فيما بلغتهم من الحق المبين ، بعد أن أقمت لهم الحجج ووضرت الأمثال ، فتأسى بمن سبقك من الرسل فقد صبروا على ما أؤذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله .

وإلى الله مرجع أمرهم فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب .
ثم ذكر أن البعث آت لا ريب فيه فقال :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ)
 أى إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لا شك فيه ، فلا تغربكم الحياة الدنيا فيذهلكم
 التمتع بمتعها ، ويلهيكم التلهي بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعا
 لوساوس الشيطان .

والخلاصة — إنكم لا تغتروا بالحياة الدنيا وتتركوا فعل ما أمرتم به وتعملوا
 ما نهيتم عنه .

ثم ذكر العلة في عدم الاغترار بالشيطان فقال :

(إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) أى إن الشيطان معلن عداوته لكم
 بوسوسته ، فعادوه أتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يفرمكم به .

ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال :

(إِنَّمَا يَدْعُو حُزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ) أى ما عرضه من دعوة شيئته إلى
 اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم وإقاؤهم في العذاب الدائم من
 حيث لا يشعرون .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
 مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ
 عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

شرح المفردات

الحسرات : واحدها حسرة ، وهى النعم على ما فات والندم عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار - ذكر هنا أن حزب الشيطان له العذاب الشديد ، وأن حزب الله له المغفرة والأجر الكبير ، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله على حسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية ، أو تدسيتها وارتكابها الإجرام والمعاصى ، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك واتباعهم. لوساوس الشيطان ، والله عليم بحالهم وسيجازيهم بما يستحقون .
أخرج جويبير عن الضحاك أن الآية نزلت في عمر رضى الله عنه وأبى جهل حيث هدى الله عمر وأضل أبا جهل .

الإيضاح

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب من الله شديد فى النار، من جراء كفرهم وإجابتهم دعوة الشيطان واتباعهم خطواته .
(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أى والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه - لهم مغفرة من الله لذنوبهم وأجر كبير كفاء ما ملئوا به قلوبهم من عامر الإيمان ، وأخبتوا إلى ربهم بصلاح الأعمال .
ثم بين البعد ما بين الفريقين واختلاف حال الفئتين فقال :

(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) أى أفمن حسن له الشيطان سىء الأعمال من معاصى الله والكفر به وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان ، فحسب سىء ذلك حسنا ، وظن قبيحه جميلا ، ألك فيه حيلة ؟

ثم ذكر السبب فى اتجاه كل من الفريقين إلى ما اتجه إليه فقال :

(فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أى فإن ذلك الإضلال بمشيئة الله تعالى التابعة لعلمه بأستعداد النفوس للخير والشر ، وقد تقدم ذلك غير مرة فلا حاجة إلى الإطناب فيه .

ثم أتى بما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى فلا تأسف على عدم إيمانهم وإحابتهم دعوتك ، فإن الله حكيم فى قدره ، فهو يضل من يضل من عباده ويهتدى من يشاء ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام باستعداد النفوس إما بإحابتها إلى ربها وإانابتها إليه وميلها إلى صالح العمل ، وإما بتدسيستها وحجبها لاجتراح السيئات وارتكاب الموبقات ، ونحو الآية قوله : «فَلَمَّا كَبَّرَ بِأَخِيحُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا» .

ثم هدد الكافرين على قبيح أعمالهم فقال :

(إن الله عليم بما يصنعون) أى إن الله عليم بما يصنعون من القبائح فيجازيهم عليه بما يستحقون ، وفى هذا وعيد تنهد منه الجبال وتندك منه الأرض دكا .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ الذُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

أرسل : أى أطلق وأوجد من العدم ، تشير : أى تحرك ، ميئت وميئت بمعنى

قاله محمد بن يزيد وأنشد :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيبا كاسفاً باله قليل الرجاء

ويرى بعضهم أن الميت بالتخفيف هو الذي مات، والميت بالتشديد، والمات هو الذي لم يمّت بعد وأنشد :

ومن يك ذاروح فذلك ميت وما الميت إلا من إلى القبر يحمل
والمراد أنه لا نبات فيه ، والنشور : إحياء الأموات يقال نشر الله الميت وأنشره ، أي أحياه ، العزة : أي الشرف والمنعة من قولهم أرض عزاز : أي صلبة ، والكلم الطيب : هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن ، وصعوده إلى الله قبوله ، والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص ، يرفعه : أي يقبله ، يمكرون : أي يعملون على وجه المكر والخديعة ، والسيئات : المنكرات السيئات كأن يراءوا المؤمنين في أعمالهم يوهمونهم أنهم في طاعة الله ، يبور : أي يفسد من البوار وهو الهلاك ، أزواجاً : أي أصنافاً ذكراً وإناثاً ، يعمر من معمر : أي يمد في عمر أحد ، في كتاب : أي في صحيفة المرء .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم في ذلك اليوم - أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لا ريب فيه ، وضرب المثل الذي يدل على تحققه لاحتمال ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ؛ ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فإله يفسد عليه تديره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة ، ذكر دليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف

أطوارها ، فقد كانت ترابا ثم نظفة ثم وضعت في الأرحام إلى أن صارت بشرا سويا ، ومنها ما يمد في عمرها ، ومنها ما يُحترَم قبل ذلك ، كما تدل عليه المشاهدة ، وكل ذلك يسير على الله .

الإيضاح

(والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) أى أفلا تتدبرون وتعلمون فتعلموا أن من أوجد الرياح بعد أن لم تكن ثم جعلها تسير السحاب الثقال فتنزله منها الغيث إلى الأرض الجُرُزُ التي لا نبات بها فتحيا بعد أن كانت ميتة وتهتز وتربو وتذبت كل زوج بهيج - أفليس ذلك القادر الحكيم الذي أحيا ميت الأرض بقادر على أن يحيي الموتى بعد بلاها ، وبعد أن كانت عظاما نخرة ؟ إنه على كل شيء قدير .

وعن أبي رزين قال : « قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا أبا رزين أما مررت بوادى قومك مُمَجِّلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم فكذلك يحيي الله الموتى . »

(من كان يريد العزة فله العزة جميعا) أى من كان يود أن يكون عزيزا في الدنيا والآخرة فليزِم طاعة الله تعالى ، فإن بها تنال العزة إذ لله العزة فيهما جميعا .

(إليه يصعد الكلم الطيب) أى إنه سبحانه يقبل طيب الكلام كالتوحيد والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر: سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

(والعمل الصالح يرفعه) صلاح العمل بالإخلاص فيه ، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه ، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه بل عليه العقاب ، فالصلاة

والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراعاة للناس لا يتقبلها الله كما قال سبحانه « قَوْلِي لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح أداء

فرائضه . وعن الحسن وقتادة : لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، من قال وأحسن
قبل الله منه .

والخلاصة — إن القول إذا لم يصحبه عمل لا يقبل ، وأنشدوا :

لا ترض من رجل حلاوة قوله حتى يزين ما يقول فعمال

وإذا وزنت فعاله بمقاله فتوازننا فإخاء ذاك جمال

وقال ابن المقفع : قول بلا عمل كثير يد بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ،
وقوس بلا وتر .

وبعد أن ذكر أن العمل الصالح يصعد إلى الله ، ذكر أن المرائين لا يقبل منهم
عمل ، ولهم عذاب شديد عند ربهم .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) أى والذين يمكرون المسكر السيء
بالمسلمين بأن يعملوا كل ما يكون سبباً في ضعف الإسلام والحط من قدره والإفساد بين
بينهم حتى يتحى أثره من الوجود كما فعلت قريش في دار الندوة ، إذ تدارست الرأى
في شأن النبي صلى الله عليه وسلم بحبسه أو قتله أو إجلائه من مكة لهم العذاب الشديد
يوم القيامة .

(ومكر أولئك هو يبور) أى ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب
لأولى البصائر ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه
وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً
فشر ، فالمرأى لا يروج أمره ولا يستمر إلا على غيب ، أما المؤمنون المتفرسون
فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف عن قريب ، وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .
ثم ذكر دليلاً على صحة البعث بما يرى في الأنفس فقال :

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً) أى والله خلق الناس
من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهى آخرها إلى الماء والتراب ، فهم من تراب
صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافاً ذكرانا وإناثاً بقدر معلوم بحيث يكاد الفريقان
يستويان عدداً ، ولو لم يكن كذلك لفتى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لا يتم

إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما تحمل من أثنى ولا تضع إلا بعلمه) أى ولا تحمل الأثنى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هى صاحبة السلطان فى هذا العالم ، لم يتم التوازن فى العدد بين الزوجين فىبقى الإنسان والحيوان . ونحو الآية قوله : « اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » . (وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى لا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص عنه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له فى الكتاب الذى كتب له ، وذلك لحفظ الموازين فى الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار فى جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن ذلك النظام البديع للعالم - هين على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شيء عليه .

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ: هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أجاجٌ، وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لَاتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَمَّا كُنتُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُوجِبُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوجِبُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا

يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ
 وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ
 وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .

شرح المفردات

عذب : أى حلوا لذيق طعمه ، فوات : أى كاسر للعطش مزيل له ، سائغ : أى
 سهل الحذاره نخلوه مما تعافه النفس ، أجاج : أى شديد الملوحة والحرارة ، حلية :
 أى لؤلؤا ومرجانا ، مواخر : أى شاقات الماء حين جريانها ، يولج : أى يدخل ،
 والقطمير : لغافة النواة ، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين التمرة والنواة ،
 يكفرون بشرككم : أى يحدون بإشراككم إياهم وعبادتهم لهم ، ولا ينبئك مثل
 خبير : أى ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة
 بعد إنزال الغيث عليها - أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم
 قدرته بخلقه الأشياء المتحدة فى الجنس المختلفة فى المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى
 فى الأقاليم والأمصار ، والبرارى والقفار ، يُسقى منه الإنسان والحيوان وينبت
 النبات الذى فيه غذاء لها ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ويستخرج
 منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لهما طريا فيه لذة للآكلين ، وهذان
 ليل ونهار ، ضياء وظلام ، يدخل أحدهما فى الآخر فيأخذ هذا من طول ذلك ، ويزيد
 هذا فى قصر ذلك فيعتدلان ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء ، وسخر الشمس والقمر والنجوم

الثواب والسيارات ، كل يجري بمقدار معين وعلى نهج ثابت لا يتغير ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شروى تغير ولا يسمعون لكم دعاء ، ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتهم واستشفعتم بهم ، ولا ينبيئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

الإيضاح

(وما يستوى البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) أى وما يعتدل البحرين فيستويان : أحدهما عذب سائغ شرابه يجري فى الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصفار على حسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار . وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن السكبار .

(ومن كل تأكلون لحاطريا) أى ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطرى فضلا من الله ومنة .

(وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى وتستخرجون الدرّ والمرجان من الملح الأجاج ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن فى كل منها تشقها شقا بجيازمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقاتكم من بلد إلى آخر فتدفع عنكم المخمصة وتسدّ العوز .

لعلكم تشكرونه سبحانه على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك فى البحر والشمس والقمر فى مدارها مناسبة ، فإن كلا منهما سارح فى تلك العوالم الشاسعة - أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر فقال :

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل الليل فى النهار فيكون

النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

(وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا في الليل وتبتغوا فضلا منه في النهار ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم لا يقصران دونه ولا يتعديانه ، وهو يوم القيامة .

(ذلكم الله ربكم له الملك) أى ذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذى لاتصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم الذى له الملك التام والسلطان المطلق والقهر والجبروت ، وكل من فى السموات والأرض فهو عبده وتحت قبضته وبطشه .

(والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أى والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئا ولو كان حقيرا ، بل هم ملك لخالق القوى والقدرة . ثم أكد ما سلف مبينا حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله :

(إن تدعوم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى وإن تدعوا هذه الآلهة من دون الله لاتسمع لكم دعاء ، لأنهم جماد لا أرواح لهم ، ولو سمعوا ما قدروا أن ينفعوك ويستجيبوا لشيء مما تطلبون .

والخلاصة — كيف تعبدون من لا ينفع ولا يضر وتدعون من بيده النفع والضرر ، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون .

وبعد أن نفى المقتضى للعبادة ، وهو محجىء النفع والضرر من قبلهم ، ذكر المانع من عبادتهم وهو كفرهم بهم يوم القيامة فقال :

(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى وهم يوم القيامة يتبرءون منكم ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زينته لكم شياطينكم ، ونحو الآية قوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله :

(ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبيتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم ، وهو الله الذى لا يخفى عليه شئ ، كان ، أو سيكون فى مستأنف الزمان .

يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَتْهُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَاءُ
يَذْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)
وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ
وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) .

شرح المفردات

ولا تزر : أى ولا تحمل ، وازرة : أى نفس آثمة ، وزر أخرى : أى إثم نفس
أخرى ، والمثقلة : النفس التى أثقلتها الذنوب والأوزار ، ذا قربى : أى ذا قرابة من
الداعى ، بالغيب : أى غائبا عنهم ، وتزكى : أى تظهر من دنس الأوزار والذنوب ،
والمصير : المرجع والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه
من الأصنام والأوثان لا يملك شيئا ولا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا - أعقب هذا بما هو
فذاكرة لما تقدم وكان النتيجة له ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، فهو الذى
تجب عبادته وحده ، لأن النفع والضرر بيده لا شريك له ؛ ثم بين أنه يوم القيامة

لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا تستطيع دفع ضررها ولو كانت ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدى نفعا لدى من يخشى الله ويخاف عقابه ، وأن من يتزكى فإنما يتزكى لنفسه ونفع ذلك عائداً إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردّها إليه .

الإيضاح

(يأيتها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد) أى أتم أيها العباد أولو الحاجة والفقر إلى خالقكم ورازقكم ، فإياه فاعبدوا ، وإلى رضاه فسارعوا ، وهو الغنى عن عبادتكم وعن غيرها ، وهو المحمود على نعمه ، فكل نعمة بكم وبسواكم فهي منه ، فله الحمد والشكر على كل حال .

والخلاصة — أنتم في حاجة إليه وهو ذو الغنى وحده لا شريك له ، والمحمود في جميع ما يقول ويفعل ويشرع لكم ولغيركم من الأحكام .
ثم أرشد إلى غناه وإلى قدرته الكاملة بقوله :

(إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى إن يشأ ربكم أن يهلككم أهللكم ، لأنه هو الذى أنشأكم من غير حاجة به إليكم ، ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون عما نهاهم عنه ، وما ذلك بصعب على الله الخالق لجميع عباده ، بل هو يسير هين عليه .

وليس يخاف ما في هذا من تهديد ووعد ، وزجر وتأييب .

ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل نفس مذنبية ذنب نفس أخرى ،

بل تحمل كل نفس وزرها فحسب ، ولا تنافى بين هذا وما جاء في سورة العنكبوت

من قوله سبحانه : « وَلِيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَتْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن هذا في الضالين

المضالين وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم ، وكل ذلك آثامهم لا آثام غيرهم .

(وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى) أى وإن تسأل نفس ذات ثقل من الذنوب ، من يحمل عنها ذنوبها ؟ لم تجد من يجيئها إلى ما تطالب ولو كان المدعو ذا قرابة لها كآب أو ابن ، إذ كلُّ مشغول بنفسه ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

ونحو الآية قوله : « لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا » وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

قال عكرمة : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بُنَيَّ : أى والد كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول له يا بنى إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجه فيقول يا فلانة : أى زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها إني أطلب إليك حسنة واحدة تهينها لى لعلى أنجو بها مما ترين ، فتقول ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إني أتخوف مثل الذى تتخوف .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم فقال :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يجدى النصح والإندار لدى من يخشون الله ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك ، بل لإيمانهم بما أتيت به وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك ، فهؤلاء هم الذين ينفعهم إندارك ويتعظون بمواعظك ، لا من طمع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون - إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم وقيمونها على مارسمه الدين ،

فهى التى تطهر قلوبهم وتقر بهم من ربهم حين مناجاتهم له كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة — إنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه دون من عداهم من أهل التمرد والعناد .

ثم حث على الأعمال الصالحة وأبان أن فائدتها عائدة إليهم فقال :

(ومن تزكى فإنما يتركى لنفسه وإلى الله المصير) أى ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصى فضع ذلك عائد إليه ؛ كما أن من يتدسّى بالذنوب والآثام فضع ذلك راجع إليه ، وإلى الله مصير كل عامل وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جرى وأئبل لنفسه .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠)
وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) .

شرح المفردات

الحرور : السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، خلا : أى سلف ومضى ، ونذير : أى منذر وخوف وهو النبي ، والبيّنات : أى المعجزات

الدالة على صدقهم فيما يدعون ، والوزير : واحدها زبور وهو الكتاب ، التكبير : الإنكار بالعقوبة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق الهدى وطريق الضلالة وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير ، والجاحد المعاند قسا قلبه ولم يستفد من هديه - ضرب مثلاً به تنجلى حاليهما ، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعى ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال فى الدنيا والنار فى العقبى .

الإيضاح

(وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور)
أى وما يستوى الأعمى عن دين الله الذى ابتمت به نبيه صلى الله عليه وسلم والبصير الذى قد أبصر فيه رشده فاتبع محمداً صلى الله عليه وسلم وصدقه وقبل عن الله ما ابتمته به ، وما تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ولا الثواب والعقاب .

ثم ضرب مثلاً آخر لها فقال :

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله ، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لاتعقل عن الله أمره ونهييه ومعرفة الهدى من الضلال وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر .

ونحو الآية قوله : « أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ » وقوله : « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ » .

والخلاصة — إن المؤمن بصير سميع نير القلب يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا وفى الآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم يمشى فى ظلمات لاخروج له منها ، فهو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى حرور وسوم ، وحيم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم .

ثم بين أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده فقال :

(إن الله يسمع من يشاء) أى إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجية وقبولها

بخلق الاستعداد فيه للهداية .

ثم ضرب مثلا لهؤلاء المشركين وجعلهم كالأموات لا يسمعون فقال :

(وما أنت بسمع من فى القبور) أى فكما لا تقدر أن تسمع من فى القبور

كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد ، لا تقدر أن تنفع بمواظب الله وحججه من كان ميت القلب لا يستطيع معرفة الله ولا فهم كتابه وواضح حججه .

والخلاصة — كما لا ينتفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم وهم كفار بالهداية

والدعوة إليها — كذلك هؤلاء المشركون لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم .

ثم بين عمل الرسول فقال :

(إن أنت إلا نذير) أى ما أنت إلا منذر عقاب الله هؤلاء المشركين الذين

طبع على قلوبهم ، ولم تكلف هدايتهم وقبولهم ما حجتهم به ، فإن ذلك بيده تعالى لا بيدك ولا بيد غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك .

ثم بين سبحانه أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه ، بل بإذن ربه وإرادته وأنه

ما جاء إلا بالحق فقال :

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بى

وحدى ، وبالشرائع التى فرضتها على عبادى ، مبشرا بالجنة من صدقك وقيل منك

ما حجت به من عندى ، ونذيرا بعقاب من كذبتك ورد عليك ما أوحى به إليك .

ثم بين فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال فقال :

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر وأزاح عنهم العليل كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » وقال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » .

ثم سلى رسوله عما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب وأبان له أنه ليس ببعد من بين الرسل فقال :

(وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلكم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) أى وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تبتئس بما يفعلون ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلكم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة وبالكتب الواضحة كالطوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود ، وبعد أن سلاه هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال :

(ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أى وبعد أن أتاكم الرسل بما أتوكم كذبوهم فيما جاءوهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فانظر كيف كان شديد عقابي بهم وإنكارى عليهم ، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا في حمايتهم حل بهم مثل ما حل بأولئك ، فتلك سنة الله لا تبديل لها ولا تغيير .

« سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
 أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧)
 وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ
 مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

شرح المفردات

ألوانها : أى من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك ، الجدد : واحدها
 جددة (بالضم) وهى الطريق المختلفة الألوان فى الجبل ونحوه ، والغرابيب : واحدها
 غريب وهو شديد السواد ؛ يقال أسود غريب وأبيض يقق وأصفر قاقع وأحمر قان ،
 وفى الحديث « إن الله يبعث الشيخ الغريب » يعنى الذى يخضب بالسواد ، وقال
 امرؤ القيس فى وصف فرسه :

العين طاححة واليد ساجحة والرجل لافحة والوجه غريب

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التى أعرض عنها المشركون
 عنادا واستكبارا - أردف ذلك ذكر ما يرونه من المشاهدات الكونية المختلفة
 الأشكال والألوان لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار
 بما يرون ويشاهدون .

الإيضاح

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا) يقول
 سبحانه منها إلى كمال قدرته : أَلَمْ تَشَاهِدْ أَيْهَا الرَّائى أَنَا خَلَقْنَا الْأَشْيَاءَ الْمُخْتَلِفَةَ مِنَ الشَّيْءِ

الواحد ، فأزلنا الماء من السماء وأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وطعمها وروائحها كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَمَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْصَلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود) أى وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حمر إلى سود غرايب كما هو مشاهد ، وفي بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضا .

(ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى وكذلك الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان فى الجنس الواحد ، بل الحيوان الواحد قد يكون فيه ألوان مختلفة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » .

ولما عدد آياته وأعلام قدرته وآثار صنعه بين أنه لا يعرف ذلك حق المعرفة إلا العلماء بأسرار الكون العالمون بدقائق صنعه تعالى ، فهم الذين يفهمون ذلك حق الفهم ويعلمون شديد بطشه وعظيم قهره فقال :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخاف الله فينتقى عقابه بطاعته - العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء وأنه يفعل ما يريد ، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته تخافه ورهبه خشية أن يعاقبه .

وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : العالم بالرحمن من عباده ، من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرّم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله .

وقال الحسن البصرى: العالم من خشى الرحمن بالغيب، ورجب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الآية .

وعن عائشة قالت : «صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فخطب فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » ، أخرجه البخارى ومسلم .

ثم بين سبب خشيتهم منه فقال :

(إن الله عزيز غفور) أى إن الله عزيز فى انتقامه ممن كفر به ، غفور لذنوب من آمن به وأطاعه ، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم : وإثابة أهل الطاعة والعمو عنهم ، ومن حق المعاقب والمثيب أن يخشى .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيُرِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) .

شرح المفردات

يتلون : أى يتبعون من قولهم تلاه إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لانفع فيها ، وقد ورد : «رُبَّ قَارِئٍ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ» والمراد من التجارة المعاملة مع الله لنيل الثواب ، وتبور : أى تكسد .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه - أردف ذلك ذكر حال العالمين بكتاب الله العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة في السر والعلن ، وأبان أن هؤلاء يرجون ثوابا من ربهم كفاء أعمالهم ، بل أضعاف ذلك فضلا من ربهم ورحمة منه ، ويطمعون في غفران زلاتهم ، لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل .

الإيضاح

إن الذين يتبعون كتاب الله ويعملون بما فرض فيه من فرائض ، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم ، ويتصدقون بما أعطاهم ربهم من الأموال سرا وعلانية بلا بسط ولا إسراف - هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدموا من عمل مع الإخبات والإنابة إليه ، وابتغون فضلا منه ورحمة فوق ذلك ، وغفرانا لما فرط من زلاتهم ، وما اجتروا من سيئاتهم ؛ فالله هو الغفور لما فرط من المطيعين من الزلات ، الشكور لطاعتهم ، فجازيهم عليها الجزاء الأوفى .

ونحو الآية قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
 إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
 عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُاذِنُ اللَّهُ
 ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ
 أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ
 مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا الْغُوبُ (٣٥) .

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن ، مصداقاً لما بين يديه : أى لما تقدمه من الكتب السماوية ، خبير بصير : أى محيط بيوطن أمورهم وظواهرها ، مقتصد : أى عامل به تارة ، ومخالف له أخرى ، سابق : أى متقدم إلى ثواب الله راجح دخول جنته ، بالخيرات أى بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة ، بإذن الله : أى بتوفيقه وتيسيره ، والحزن : هو الخوف من محذور يقع فى المستقبل ، دار المقامة : أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبداً ، وهى الجنة ، نصب : أى تعب ، وانغوب : أى كلال وفتور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم - أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورشوا الكتاب أقساماً ثلاثة : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين ، وأنهم يدخلون جنات تجري من تحتها الأنهار وأنهم يحملون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير ، ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، ويقولون : إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب .

الإيضاح

(والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصداقاً لما بين يديه) أى إن القرآن الذى أنزلناه عليك هو الحق من ربك ، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به وتتبع ما فيه ، دون غيره من الكتب التى أوحيت إلى غيرك ، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل على الرسل من قبله فصار إماماً لها .

(إن الله بعباده خبير بصير) أى إن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بما يصلح

لهم فيشرع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس في كل زمان ومكان ، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .
 (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) أى أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة التي هي خير الأمم بشهادة الكتاب « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وجعلناهم أقساما ثلاثة :

(١) ظالم لنفسه مفرط في فعل بعض الواجبات مرتكب لبعض المحرمات .

(٢) مقتصد مؤد للواجبات تارك للمحرمات تقع منه تارة بعض الهفوات ، وحيناً يترك بعض المستحسنات .

(٣) سابق بالخيرات بإذن الله ، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

والخلاصة — إن الأمة في العمل أقسام ثلاثة : مقصر في العمل بالكتاب مسرف على نفسه . ومتردد بين العمل به ومخالفته . ومتقدم إلى ثواب الله بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه .

وقال الحسن : الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئاته ، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته .

(ذلك هو الفضل الكبير) أى ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم من الله لا يقدر قدره .

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين بين جزاءهم وما لهم بقوله :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير) أى بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة ، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلى ويكون لباسهم حريرا .

(وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) أى ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر ، وأراحنا بما كنا نتخوف من هموم الدنيا والآخرة . ثم ذكر السبب فى ذهاب الحزن عنهم فقال :

(إن ربنا لغفور شكور) أى إن ربنا لغفور لذنوب المذنبين ، شكور للطيعين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

والخلاصة — إنه أذهب عنهم الحزن من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والوساوس الشيطانية .

ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتخليتهم بالحلى وإدخالهم الجنات — ذكر سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها . فقال :

(الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها غوب) أى إن ربنا لغفور شكور ، لأنه أنزلنا الجنة التى لا تتحول عنها ولا تقلة ، ولا يصيبنا فيها تعب ولا وجع ولا إعياء ولا فتور .

والخلاصة — إنهم أتعبوا أنفسهم فى العبادة فى دار الدنيا فاستراحوا راحة دأمة فى الآخرة كما قال : « كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ؛ كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) .

شرح المفردات

لا يقضى عليهم : أى لا يحكم عليهم بموت ثانٍ ، يطرخون : أى يصيحون
أشد الصياح للاستغاثة ، نعمركم : أى نهلكم ، للظالمين : أى للكافرين ، نصير :
أى معين يدفع عنهم العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن بين ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة فى دار السرور التى قال
فى مثلها القائل :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء
أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النعمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا
من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وحبور لا يدوم .

الإيضاح

(والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها)
أى والذين ستروا ما تدل عليه العقول من شمس الآيات وأنوار الدلالات ، لهم نار
جهنم لا يحكم عليهم فيها بموت ثانٍ فيستريحوا من الآلام ، ولا يخفف عنهم العذاب
فيها ، بل كلما خبت زيد سعيها .

ونحو الآية قوله « وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ، قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ »
وقوله : « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يَخْتَرِعُ عَنْهُمْ لَهُمْ فِيهِ مُبَلِّسُونَ »
وقوله : « كَلَّمَا خَبِتْ زِدْنَاَهُمْ سَعِيرًا » وقوله : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ
إِلَّا عَذَابًا » .

ثم بين أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه ، جاحد بوحدانيته فقال :

(كذلك نجزي كل كفور) أى وهكذا نكافئ كل جاحد لآلاء الله منكر
رسله ، فندخله نار جهنم بما قدم من سيئات فى الدنيا .

(وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى وهم
يستغيثون ويضعجون فى النار يقولون ربنا أخرجنا منها وأعدنا إلى دار الدنيا
نطعمك ونعمل غير الذى كنا نعمل من معصيتك ، وقد علم منهم أنه لو ردهم إلى هذه
الدار لعادوا إلى ما نهوا عنه .

وحينئذ يقال لهم تقرىبا وتوبيخا :

(أولم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكرة؟) أى أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم
من ينتفعون بالحق لا تنفعتم به مدة عمركم ؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم « فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » .

والخلاصة — إنه تعالى لا يجيبكم إلى ما طلبتم ، لأنكم كنتم عصاة ولوردتم
لعدتم إلى ما نهيتهم عنه .

روى أحمد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لقد أعذر الله إلى
عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر
الله تعالى إليه » .

(وجاءكم النذير) أى وجاءكم الرسول ومعه كتاب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتم
أمره وتركتم طاعته .

والخلاصة — إنه احتج عليهم بأمرين : طول العمل ، وإرسال الرسل .

ونحو الآية قوله : « وَنَادَا يَا مَلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ . قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُتُبُونَ .
لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « كَلِمَاتٍ نَقِي
فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُنَّهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » .

وقد استبان مما تقدم أنهم لا يخرجون منها ، ومن ثم قال :
 (فذوقوا فما للظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء
 فى حياتكم الدنيا ، وإن تجدوا لكم ناصرا يفتدكم مما أتم فيه من العذاب
 والسلاسل والأغلال .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨)
 هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا
 يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ
 كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) .

شرح المفردات

ذات الصدور : هى المعتقدات والظنون التى فى النفوس ، والخلائف : واحدهم
 خليفة ؛ وهو الذى يقوم بما كان قائما به سلفه ، مقنا : أى بغضا واحتقارا ، خسارا :
 أى خسارة ؛ فالعمر كراهن مال إذا اشترى به صاحبه رضا الله ربح ، وإذا اشترى به
 سخطه خسر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويدفع العذاب عنهم -
 أردف ذلك ببيان أن الله محيط بالأشياء علما ، فلو كان لهم نصير فى وقت ما لعلمه .
 إلى أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار ، وكان ذلك مظنة أن يقال
 كيف يتخلدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات - أعقب ذلك بذكر أنه علم
 بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ،
 فهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

الإيضاح

(إن الله عالم غيب السموات والأرض) أى إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون في أنفسكم وما تضمرون وما تستنويون أن تفعلوه ، وما هو غائب عن أبصاركم في السموات والأرض ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم تضمرون الكيد لرسوله ، وتريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التي لا تنفعكم شيئاً يوم القيامة .
ثم علل هذا بقوله :

(إنه علم بذات الصدور) أى لأنه علم بما تكنه السرائر ، وما تنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بما عمل .
وفي هذا إيماء إلى أنه لو مد أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبداً ، فلا مطمع في صلاحهم .

ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب فقال :
(هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى هو الذى ألقى إليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فى الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة .
(فن كفر فعليه كفره) أى فن غمط مثل هذه النعمة العظيمة فإتما يعود وبال ذلك إلى نفسه دون غيره ، لأنه هو المعاقب لاسواه .

ثم فصل ذلك وبينه بقوله :
(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقثاً) أى وكلما استمروا فى كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم .

(ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً) أى وكلما اطمأنوا إليه خسروا أنفسهم يوم القيامة وحق عليهم سوء العذاب .

والتكرير للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين التبيين على سبيل الاستقلال .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ؟ بَلْ إِنْ يَعْذِبُوا الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِيَّائِنَا فَغَدُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبروني ، شرك : أى شركة ، يمسك : أى يحفظ ، وتزول : أى تضطرب وتنتقل من أما كتبها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض - أكد هذا بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطربهم إلى الاعتراف بوحدانيته وعدم إشراك غيره معه .

الإيضاح

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرؤنى ماذا خلقوا من الأرض) أى أخبرونى أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان - أرؤنى أى جزء من الأرض أو من الأناسى والحيوان خلقوا حتى يستحقوا الإلهية والشركة .

والمخلاصة - أعلمتم هذه الآلهة ما هى ؟ وعلى أى حال هى ؟ فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة ، فكيف تعبدونها ، وإن كنتم توهمتم فيها القدرة فأرؤنى أثرها ؟ (أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة مع الله فى خلق السموات حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم .

(أم آتيناكم كتابا فهم على بينة منه ؟) أى أم هناك كتاب أوتوه ينطق بأننا اتخذناهم شركاء ، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا .
 وخلاصة ما تقدم — أخبرونى عن تعبدونهم من دون الله ، هل استبدوا بخلق
 شىء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله ، أولهم شركة معه فى خلق السموات ،
 وآتيناكم برهاننا بهذه الشركة .

الخلاصة : إن عبادة هؤلاء إما بدليل من العقل ، ولا عقل يحكم بعبادة من لا يخلق
 شيئا ، وإما بدليل من النقل ، وإن لم نؤت المشركين كتابا فيه الأمر بعبادة هؤلاء .
 وبعد أن نفى ما نفى من الحجج أضرب عنه بأن الذى حملهم على الشرك هو
 تقرير السلف للخلف وإضلال الرؤساء للأتباع وقولهم لهم : إن هؤلاء شفعاء يشفعون
 لهم عند الله إذا هم عبدوهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) أى بل إنما اتبعوا فى ذلك آراء
 أسلافهم وضلالهم ، وما هى إلا غرور وأباطيل .

ولما أبان حقارة الأصنام أرشد إلى عظمته تعالى فقال :

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى إن الله يمنع السموات أن
 تضطرب من أماكنها ، فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض من مثل ذلك ، ويحفظهما
 برباط خاص ، وهو ما يسميه العلماء نظام الجاذبية ، فجميع العوالم من الأرض والقمر
 والشمس والسيارات الأخرى تجرى فى مدارات خاصة بهذا النظام الذى وضع لها ،
 ولولا ذلك لتحطمت هذه الكرات المشاهدة وزالت عن أماكنها ، لكنها به ثبتت
 فى مواضعها واستقرت فى مدارتها .

(ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أى وإن أشرفنا على الزوال
 ما استطاع أحد أن أمسكهما من بعد الله .

والخلاصة — إنه لا يقدر على دوانهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير .

ونحو الآية قوله : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله :
« وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » .

(إنه كان حلما غفورا) ومن ثم حلم على المشركين وغفر ابن تاب منهم على
عظيم جرمهم المقتضى تعجيل العقوبة لهم .
والملاصة — إنه يحلم ويُنظر ، ويُوجل ولا يعجل ، ويستر ويغفر .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُوا هُدًى
مِنْ إِيَّاهِ الْآمِنِينَ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢)
استكبارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ،
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّنَةَ الْأُولَىٰ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ
لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) .

شرح المفردات

وأقسموا : أى حلف المشركون ، جهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، نذير :
أى رسول ، أهدى من إحدى الأمم : المراد بها اليهود أو النصارى ، نفورا : أى تباعدا
عن الحق ، مكر السيئ : أى المكر السيئ الذى فيه خداع وكيد لرسول الله صلى الله
عليه وسلم ، ولا يحيق : أى ولا يصيب ولا ينزل ، سنة الأولين : أى سنة الله فيهم
بتعذيب مكذبيهم ، تبديلا : بوضع الرحمة موضع العذاب ، تحويلا : بأن ينقل
عذابه من المكذبين إلى غيرهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام وبتكفيرهم
على هذا أشد التبكيت وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ،

أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضاً، فقالت اليهود: ليست النصراني على شيء، وقالت النصراني: ليست اليهود على شيء، ثم هددهم بأن عقابهم ستكون الملاك الذي لا يحصى منه، وتلك سنة الله في الأولين من قبلمهم، وسنته لا تبدل فيها ولا تحويل.

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم) أى وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان وبالغوا فيها أشد المبالغة: لئن جاءهم من الله رسول يندرهم بأسه، ليكونن أسلاك لطريق الحق وأشد قبولاً له من أى أمة من الأمم التى خلت من قبلهم.

(فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا، استكباراً فى الأرض ومكر السيئ) أى ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية، فما زادهم حبيته إلا بعداً من الإيمان بالله وانصرافاً عن الحق واستكباراً عن اتباع آيات الله، ومكروا بالناس مكرًا سيئاً فصودهم عن سبيل الله.

والخلاصة — إنه تبين أنه لاعد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق، وصار مثلهم مثل الإبل التى نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بدعائه نفرة وصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها.

ثم بين أن عاقبة مكرهم عادت عليهم بالووال بقوله:

(ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله) أى ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم

دون غيرهم.

روى الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «لا تمكروا ولا تعينوا ما كرا

فإن الله يقول: «وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ» ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا

فإن الله سبحانه يقول : « إِنَّمَا بَغْيِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ » ولا تنكثوا ولا تعينوا
نا كذا فإن الله يقول : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ » .

وقد وقع مثل هذا في كلام العرب فقد قالوا: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبًا.
والعبرة في الأمور بالعواقب ، والله يهمل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة ، فإن لم
يجاز للماكر في هذه الدار فسيلقى الجزاء في الآخرة « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ؟ » .

ثم هددهم بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من العذاب فقال :

(فهل ينظرون إلا سنة الأولين) أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك
إلا أن أحل بهم من نقى على شركهم بي وتكذيبهم رسولى - مثل ما أحلت بمن
قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا رسالهم .
ثم علل انتظارهم للعذاب وتهديدهم به بقوله :

(فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً) أي وهذه سنة الله
في كل مكذب فلا تغير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب ، ولن يحول
العذاب من نفس إلى أخرى كما قال : « وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ » .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ
وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُوَاقِحُ اللَّهُ النَّاسَ
بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) .

المعنى الجملي

بعد أن هدد المشركين بجرّيان سنة الله فيهم بإهلاكم كما أهلك المكذبين من قبلهم - نبيهم - إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم في رحلاتهم للتجارة في الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منهم منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراد .

ثم ذكر خلقه بعباده وأنه لو أخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفي كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

الإيضاح

(أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟) أي أو لم يسر هؤلاء المشركون بالله في الأرض التي أهلكتنا فيها أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا ، أثناء رحلاتهم التي يسلكونها إلى طريق الشام في تجارتهم ، فينظروا كيف كانت عاقبتهم - ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم فيتمظؤوا بهم وينزجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام ؟

ثم بين أنهم إذا ساروا على تمردهم وعنادهم فهم لا يفلتون من عقابه فقال :

(وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض) أي ولن يعجز الله هؤلاء المشركون به المكذبون لرسوله فيسبقوه هربا وينجوا من الهلاك إذا هو أراد ذلك بهم ، لأنه لا يعجزه شيء يريده في السموات ولا في الأرض .

وغير خافٍ ما في هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد لهم .

ثم علل عدم عجزه عن شيء فيهما بقوله :

(إنه كان عليا قديرا) أى إنه تعالى عليم بمن يستحق أن يعجل له العقوبة ،

ومن قد تاب وأتاب إلى ربه ورجع عن ضلالتة ، قدير على الانتقام ممن شاء منهم ،
وعلى توفيق من أراد الإيمان .

ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء فيقولون « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا

هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

بين أنه لا يعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا ، اللهم ينيبون أو ينيب بعضهم إلى ربه ،
ويتوب إلى رشده فقال :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يعاقب

الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهر
الأرض نسمة تدب لشؤم المعاصي التي يفتنون فيها .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أى ولكن يؤخر عقابهم ومواخذتهم

بما كسبوا إلى أجل حدده عنده لا يقصرون دونه ولا يتجاوزونه إذا بلغوه .

(فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) أى فإذا حل الأجل فإن الله

يجازى المكلفين بما عملوا من خير أو شر ، لا يخفى عليه شيء من أمرهم ، دق أو جل ،
ظهر أو بطن .

اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها ، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك

أنت الخبير البصير .

بجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

- (١) الأدلة على قدرة الله بإبداعه للكون وأنه المنعم المتفضل .
- (٢) تذكير الناس بالنعمة ليشكروها .
- (٣) تثبيت فؤاد رسوله بذكر قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين .
- (٤) نداء الناس عامة بأن يتحلوا بالفضائل ، ويتخلوا عن الرذائل ولا يتبعوا خطوات الشيطان ، وينظروا فيما أبدع الرحمن من الآيات في الأرض والسموات .
- (٥) ضرب الأمثال لما سلف من القسمين ، وإيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة .
- (٦) تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين ، وصالحين متقين ، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساما ثلاثة .
- (٧) وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين وما يلقاه كل منهما يوم القيامة .